

مجلة شهرية . العدد الثامن والستون . السنة السادسة . سبتمبر ٢٠٠٤ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 6 - Issue 68 - September 2004

دارفور .. من أشعل الحريق ؟
حسن مكى - أليكس دى وال

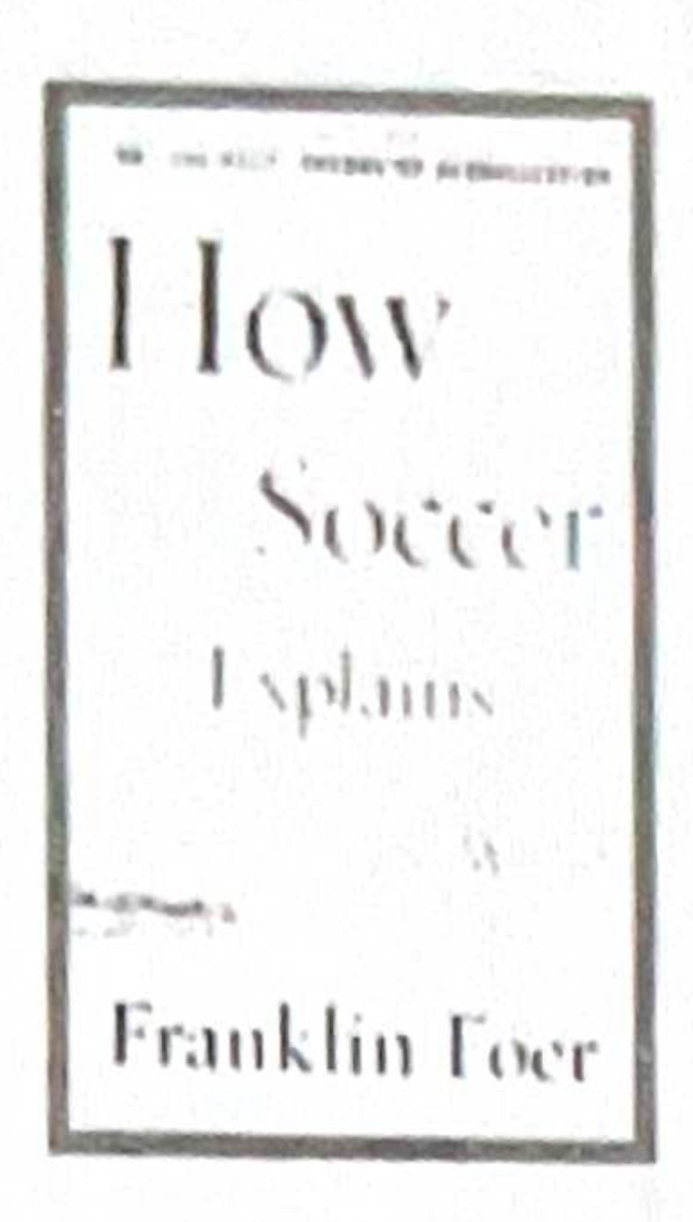
من الحداثة إلى ما بعدها .. عصر النهايات
عبد الوهاب المسيرى

الحل « الكروى » للطموحات الإسلامية
فرانكلين فوير

دروب لا تفضى إلى شىء ..
سلامة أحمد سلامة

فن الأكل

"إذا كانت الأرض كروية..
فالعالم كرة قدم"



فرانكلين فوير

"هذا فصل من كتاب صدر منذ أسابيع عن دار نشر كبيرة Harper Collins، قد يكون صادمًا للقارئ العربى الذى سيراه مليئًا بمبالغات تصل إلى حد المغالطات، ربما بحثًا - ملهوفًا - عن إثارة مطلوبة، أو انسياقًا - دون تدقيق - وراء صورة نمطية غابت تفاصيلها الحقيقية وراء ضباب تكاثف خيالاً وجهلاً أحيانًا، أو سوء نية أحايين أخرى.

هل نحن أمام «موضة» لدى الكاتب الغربى - أو بعضهم - تتمثل فى إقحام الإسلام، حقًا أو عسفًا، فى مناقشة أى موضوع؟ أم هو اهتمام بات مفهومًا ومتوقعًا فى السنوات الأخيرة بالإسلام وثقافته؟

ولأنه من طبيعة الأمور أن فى كل شأن «وجهات نظر»، نميل هنا لأن نترك السؤال مفتوحًا، عارفين من هو قارئنا ومتيقنين من أهمية أن تظل «وجهات نظر»/ المجلة نافذة «أمينة» لقارئها العربى يطل منها على اتجاهات فى فكر الآخر (دون تدخل)، وبغض النظر عن الاتفاق أو الاختلاف."

المحرر

الحل الكروى

[١]

■ ■ أكبر استاد فى إيران هو استاد أزدى الذى يسع ١٢٠ الف متفرج. ومع أن المعنى المباشر للكلمة فى القاموس هو «الحرية»، فإنه يمثل شيئًا قريبًا من العكس. فمنذ قيام الثورة الإسلامية فى عام ١٩٧٩ والنساء محظور عليهن مشاهدة كرة القدم فى أزدى. وهذا الحظر ليس مقصوراً على هذا الموضع أو حتى على إيران، بل ينطبق على مساحات كبيرة من العالم الإسلامى، مازالت اشكال الحظر مستمرة دون جدل كبير. إلا أن الحقيقة الأساسية فى إيران هى انها ليست المملكة العربية السعودية. فهى فى العقود الأخيرة للشاه لم تحبس النساء فى البراقع السوداء. بل تولت النساء مناصب حكومية رفيعة، وكن كاتبات ومحاميات ومشجعات للعبة الجميلة.

مع تدفق أعداد كبيرة من الناس من خلال مداخل أزدى، من المستحيل ضمان الالتزام حرفيًا بمبادئ الشريعة. ذلك أن المشجعين سوف يسبون بأقذر لغة وبأشد الألفاظ المحظورة. وسوف يلقون بكلمات التوبيخ التى لا يمكن تبريرها بأى تفسير معقول للقرآن. وبعض هؤلاء الرجال حليقو الذقون ويرتدون ملابس واسعة بشكل يثير الشك. ومع التفتيش الدقيق، قد يتضح أن هؤلاء الرجال ليسوا رجالاً فى الواقع. فنساء طهران يغامرن بالتعرض للعقوبة القاسية لكونهن عاجزات عن ارتياد أزدى. وهن يضغطن صدورهن، ويلففن شعرهن الطويل، ويرتدين الزى الرجالى، ويتسللن إلى داخل الاستاد.

يقال إن هذه الفئة المظلومة من النساء المتعطشات إلى كرة القدم تضم بنات رجال الدين المهمين، وهن النساء الوحيدات اللائى لهن رأى فى حكم البلاد. ومن الواضح أن شكاواهن التى لا تنقطع قد مست وتراً أبوياً حساساً للتغلب على السابقة الشرعية. ففى عام ١٩٨٧ أصدر دكتاتور البلاد الدينى والسياسى فتوى عدلت الحظر المطلق الذى فرضه النظام على تشجيع الإناث للرياضة. فبينما كان يتحدث من خلال لحيته البيضاء الطويلة، أجاز مشاهدة النساء لمباريات كرة القدم على شاشة التليفزيون الذى نقل الألعاب الرياضية لأول مرة فى الحقبة الإسلامية، ولكنهن لا زلن ممنوعات من الذهاب إلى الاستاد الحافل بهورمون التستسترون. وقد أرضى الحل الوسط الذى قدمه الخمينى الجميع لبعض الوقت.

لكن اللمسة الحكيمة للملالى لم يمكنها تهدئة الرغبة العميقة لدى الإيرانيات. وكشأن كل المشجعين الجيدين، فإنهن يفهمن أن التليفزيون بديل ضعيف للتجربة الحقيقية التى من لحم ودم. ولو عدنا بالنظر إلى الوراء لكان من المحتم أن تطالب المرأة بالعودة إلى استاد البلاد. ومع ذلك، فإن هذا الطلب الجسور يقتضى قدراً كبيراً من الشجاعة ووجود ذريعة ما. وقد منحت البطولات التى حققها الفريق القومى فى نوفمبر من عام ١٩٩٧ الأمرين معاً للمرأة الإيرانية.

كانت حملة إيران للتأهل لكأس العالم ترتكز على مباراة نهائية ضد استراليا تقام فى ملبورن. وكان الإيرانيون فى معظم المباراة يشتتون الكرة وكأن حكومتهم أمرتهم بأن يخسروا المباراة متعمدين، لمنع احتفالات النصر فى طهران التى قد تخرج عن السيطرة (استنتاج غريب. المترجم). ولكن الإيرانيين فى الخمس عشرة دقيقة الأخيرة من مباراة التأهل لكأس العالم. وكانت لحظات تتسم بالرعب واليأس، تخلصوا من كسلهم وأحرزوا هدفين مذهلين أنقذا الفريق من الهزيمة.

فصل من كتاب:
How Soccer Explains the World: An Unlikely Theory of Globalization
(كيف تفسر العالم من خلال كرة القدم؟.. نظرية فى العولمة)
Franklin Foer
261PP. 2004 ،Harper Collins. Pub.

ترجمة: أحمد محمود

للطمـــوحات الإســلامية!

وبذلك تقدمت إيران إلى كأس العالم لأول مرة منذ إعادة الطائرة من طراز ٧٤٧ آية الله الخميني من المنفى قبل ذلك بثمانية عشر عاماً.

وبما أن النظام الإيراني يملك أنفاً رومانياً فيما يتعلق بالحفاظ على النفس، فقد بدأ على الفور الاستعداد للاحتفال، وهو يعرف أن الجماهير الفرحة قد أعطت أجازة لعقلانيتها، وبدون عقلانية ترشدهم قد يكونون من الجنون بحيث يزيلون المتاريس. وكان مشهد كرة القدم قد أخذ يعكس الطموحات الخاصة بإيران الجديدة الأكثر تحرراً. وهي نفس الروح التي قذفت بالإصلاحي محمد خاتمي إلى الرئاسة قبل ذلك ببضعة أشهر. ولأول مرة في تاريخ الجمهورية الإسلامية، قاد الفريق مدرب أجنبي، وكان برازيلياً اسمه فالدير فييرا. وحين كان يجلس على الخط، كان يرتدي ربطة عنق، وهي الموضة التي دفع بها الشاه لتكون رمزاً لإيران الحديثة، بينما رفضها رجال الدين باعتبارها أمراً مفروضاً من الغرب. وكان الكثير من لاعبي فييرا قد صنعوا حياتهم الرياضية في الدوري الأوروبي والدوري الأسيوي، وكانوا نماذج مشجعة لتفاعل إيران مع الاقتصاد الكوني.

كانت الحكومة محقة في شعورها بالقلق. فبعد الانتصار امتلأت شوارع طهران بالمحتفلين. وقد جعلهم الفرح يُحلون أنفسهم من الأخلاق الرسمية. وأصبح الرقص والشرب وموسيقى البوب الغربية، وهي الأمور التي كانت تقتصر في العادة على البيوت، أي على المجال الخاص، مادة للاحتفال العام. وإذا كان المحتفلون رجالاً، فقد كان ذلك شيئاً عادياً. ولكن في الأحياء الراقية، وخاصة بين الشباب، كان المحتفلون من الجنسين. وقد ألقت بعض النساء بالحجاب واحتفلن بدون أغطية الرأس المأمور بها. وحين كان الباسيجي، أي أعضاء الميليشيا شبه العسكرية الدينية، يصلون لفض المظاهرات، كانوا يُقنعون بالانضمام للمحتفلين أنفسهم.

جرى نزع فتيل الأزمة إلى حد ما. وطلبت الحكومة من الفريق التلكؤ في العودة من أستراليا، حيث يتوقف في دبي كسباً للوقت كي يهدأ الوضع في طهران. وحذرت الإذاعة المواطنين من الاحتفالات العلمانية التي تغضب الله. وخاطبت بعض الرسائل الأخرى نساء البلاد على وجه التحديد ودعتهن «أخواتنا العزيزات» حيث حثتهن على البقاء في بيوتهن أثناء احتفالات عودة الفريق إلى الوطن.



حين عاد الفريق أخيراً، بعد ثلاثة أيام، أقامت الحكومة الاحتفال في استاد أزدي. وصل الأبطال إلى الاستاد بالطائرات الهليكوبتر، وكأن سيلفيو بيرلسكوني هو الذي خطط الحدث. ولكن المشهد الحقيقي لم يكن داخل الاستاد. فقد تحدت آلاف النساء نداءات الدولة وتجمعن على الجانب الآخر من بوابات أزدي، في درجة حرارة مقدارها ٢٧ درجة. وكما قال عالم الأنثروبولوجيا كريستيان برومبرجر، فإنه حين رفضت الشرطة دخول هؤلاء النساء الاستاد، بدأن الصياح قائلات «ألسن جزءاً من هذا البلد؟ نريد أن نحتفل كذلك». وخوفاً من الزحام، سمحت الشرطة لثلاثة آلاف امرأة بدخول الاستاد في مقاعد خاصة مفصولة عن بقية الاستاد. ولكن ماذا عن حوالي ألفي امرأة أخرى على الجانب الآخر من الداخل لم يدخلن أزدي؟ فدخول أخواتهن لم يهدئهن. وفي تصميم منهن على الحصول على نصيبهن من الاحتفال، اقتحمن البوابات التي أقامتها الشرطة وشققن طريقهن إلى داخل الاستاد. واعتزاماً على تجنب المشاغبات الكبيرة التي قد توجه المشاعر الفطرية الخاصة بذلك اليوم في اتجاه خاطئ، لم يكن أمام الشرطة خيار سوى التغاضي عن دخولهن والإقرار بالهزيمة.



[٢]

حين يكتب مؤرخون آخرون عن تحول الشرق الأوسط، فمن المحتمل أن يتحمسوا لهذه اللحظة التى باتت بالفعل تُعرف بـ«ثورة كرة القدم». وكما هو الحال بالنسبة لحفل شاى بوسطن - ١٠ مايو ١٧٧٣، حين ثار الأمريكيون على عدم إلغاء الرسوم المفروضة على الشاى وقاموا بإلقاء الشاى الموجود على ثلاث سفن فى البحر - سوف تصبح اللحظة التى أدرك فيها الناس لأول مرة أن بإمكانهم تحدى حكامهم الطغاة. وبالنسبة للإيرانيين، كان الحدث بمثابة انتفاضة نموذجية، ذلك أن كل مباراة تأهيلية لاحقة جعلت الإيرانيين ينزلون الشوارع. وبمرور الوقت، أصبح المعنى السياسى الضمنى لهذه التدفقات واضحاً بصورة كبيرة. وخلال حملة ٢٠٠٢، ومع كل فوز إيرانى. على السعودية، وعلى العراق، وعلى الإمارات العربية المتحدة. كان المشجعون المحتفلون ينشدون «زندباد أزدى» (فليحيا أزدى) و«نحن نحب أمريكا». ولكن هذا قد يقلل من أهمية ثورة كرة القدم. إنها أكثر من مجرد حدث. فثورة كرة القدم تمسك بمفتاح المستقبل فى الشرق الأوسط. وربما أمكن تصور هذا المستقبل فى ظل خفقان الراية القومية الموالية للإسلام، والكتابات الموجودة على الجدران التى تمتدح «شعب إيران النبيل»، وهتاف المحتفلين باسم رضا بهلوى ابن الشاه الراحل المقيم فى المنفى. وهى جذور انتفاضة قومية ضد الإسلام.

لكن هل ثورة كرة القدم هى الثورة التى تريدها الولايات المتحدة؟ من فترة ليست ببعيدة كانت النزعة القومية العلمانية تبدو العدو الكبير فى الشرق الأوسط. فالحكام المستبدون مثل جمال عبد الناصر ومعمر القذافى وحافظ الأسد كانوا أكبر شوكة فى خاصرة أمريكا (المعروف أن وفاة عبد الناصر كانت قبل بداية ظاهرة خطف الطائرات.. المحرر)، وكانوا يرعون اختطاف الطائرات وشن الحرب ضد إسرائيل. إلا أن القوميين العرب مروا بأوقات عصيبة فى الثمانينيات. فلم يعد بإمكانهم اللجوء إلى الاتحاد السوفيتى من أجل الرعاية، وكشفت حرب الخليج الأولى كيف أنه بإمكان الأمريكان أن يسحقوا بسهولة حتى أقوى من فى هذه الحزمة. بل إنه منذ أيام ناصر وهؤلاء العلمانيون يتنافسون مع الحركات الإسلامية التى كانت تمولها المملكة العربية السعودية. والآن، وبينما كان هؤلاء القوميون لا حول لهم ولا قوة، حققت حماس والقاعدة والواعظون الوهابيون المتشددون الانتصار فى معركتهم للهيمنة على العقل المسلم.

لا شك فى أن الحكام المستبدين القدامى قد أحدثوا قدراً كبيراً من الصداع، ولكن أمريكا كانت تعرف أساساً كيف تتعامل معهم. فقد استطاعت أن تقضى عليهم الواحد تلو الآخر، وتنبذهم فى النهاية باعتبارهم حمقى لا ضرر منهم نسبياً. ومن ناحية أخرى كان الإسلاميون مشكلة غير معتادة لا يمكن احتواؤها. فما هو السبيل لمواجهتهم؟ كان أحد الأجوبة هو ضخ المزيد من العولمة فى المنطقة. ولكن ذلك لم يفلح حتى الآن. ففى أماكن مثل باكستان، زادت مطاعم كنتاكى وأفلام بوليوود - مدينة السينما الهندية - من تفاقم المشكلة. فقد لفتوا عن طريق عرض أسلوب الحياة الغربية الانتباه إلى افتقار العالم الإسلامى المهين إلى الحداثة. ويشير الحل الآخر لمشكلة النزعة الإسلامية، وهو الحل المحافظ الجديد، إلى أن الولايات المتحدة تدفع الشرق الأوسط بكثافة وسرعة نحو الديمقراطية. إلا أن مجرد حقيقة أن الولايات المتحدة هى القوة الوحيدة الملتزمة التزاماً جاداً بوسائل التحول الديمقراطى تعنى أن الكراهية العمياء للرسول قد تقضى على الرسالة. وتبين ثورة كرة القدم أن أفضل ترياق للنزعة الإسلامية قد لا يكون شيئاً جديداً، بل قديماً. ألا وهو العودة إلى النزعة القومية العلمانية.

الواقع أن ثورة كرة القدم تتنبأ بسيناريو واعد، وهو أن الناس لن تقبل بحكم رجال الدين للأبد، خاصة حين يتذكرون تلك الفترة من الحرية الأكبر التى كانت قبل حكم رجال الدين. وحين يثورون، فإنهم قد يلتمسون العون الأمريكى بشكل عابر. ولكنهم سوف يثورون فى الغالب باسم أمتهم. وقد لا نتفق دائماً مع القوميين الجدد. وقد يوجهون انتقاداتهم تجاه الولايات المتحدة. ولكنهم البديل الممكن الوحيد للحكم بالإسلام.

[٣]

يمكن رواية تاريخ إيران الحديثة كما يُروى تاريخ كرة القدم الإيرانية. فهو يبدأ بعد الحرب العالمية الأولى بالشاه رضا الكبير، ملك الملوك، ظل الله، ممثل الله ومركز الكون، مؤسس الأسرة البهلوية. لم يولد رضا خان، الرجل الذى أصبح رضا شاه فى سن النضوج حين كان فى السابعة والأربعين، فى القصر. فقد كان جندياً شبه عسكرى من الأقاليم صنع اسمه بقيادة فرقة من القازاق المدربين تدريباً روسياً. ولكنه كان فى نظر البريطانيين، الذين قفزوا على بحيرة البترول الإيرانية وحاولوا إدارة البلاد بهدوء، الشخص التافه المناسب. حيث كان رجلاً بلا طموحات سياسية، ومعتاداً على تلقى الأوامر. وفى عام ١٩٢١ اتخذ الجنرال السير إدموند أيرنسايد مقراً له فى طهران، وقد اقترح بتواضع أن رضا قد يرغب فى تولى السلطة. وكانت الحكومة القديمة قد باتت ذات نزعة قومية قوية ولا يمكن الاعتماد عليها حسب مذاق أيرنسايد. ونجح انقلاب رضا بمباركة بريطانية. وبعد أربع سنوات تلقى رضا المكافأة النهائية على تعاونه. فقد أرسل العاهل العجوز إلى أوروبا، وحمل هو لقبه المطول ومعه كل مظاهر الملكية. وكانت قفزة أكبر من أن يقوم بها فتى قروى بسيط. ولكن كما سيشهد البريطانيون، فقد أثبت أنه يختلف كثيراً عن ذلك الريفى الساذج المطيع الذى تخيلوه فى البداية. إذ سوف يستخدم الجيش كأداته التى لا ترحم لإعادة تشكيل المجتمع الفارسى على صورة المجتمع البروسى، ليكون أمة حديثة تنافس أوروبا. وكما هو شأن نموذجه الآخر المحدث التركى العظيم كمال أتاتورك، فقد شق الطرق ومد السكك الحديدية، وأخمد الممارسات التقليدية، وقلل من شأن الملالى، وحظر التشادور. وأصدر تشريعاً يقضى بتخلص الرجال من عباءاتهم وارتدائهم الحلل الغربية. ولكى يخلق أمة حديثة، أراد خلق رجل إيرانى حديث يفهم قيم الصحة والتنافس الرجالى والتعاون.

أصبح رضا شاه مؤيداً متحمساً للتربية الرياضية، وكان ذلك ميلاً ناحية الرياضة البدنية الألمانية التى أدخلها ضمن المناهج المدرسية. وسرعان ما أصبحت كرة القدم النشاط المميز لدى النظام. وأمر رضا شاه بأن تلعب القوات المسلحة المباريات، حتى فى الأقاليم، حيث لم تكن الأحذية الأوروبية قد ظهرت بعد. وكما قال مؤرخه صاحب العقل الثاقب هوتشانج شهابى فإنه «بحلول منتصف العشرينيات كانت كرة القدم قد أصبحت رمزاً للتمدن، وسرعان ما جرى الترويج للعبة على أعلى مستويات الدولة».

وكما هو حال رضا شاه نفسه، فإن كرة القدم الإيرانية تدين بقوتها فى البداية للبريطانيين. فقد تعلمت النخبة الإيرانية كرة القدم فى المدارس التبشيرية التى يديرها الأجانب. وتعلمت الجماهير الإيرانية اللعبة بالوقوف على خطوط التماس تشاهد موظفى شركة النفط الأنجلو إيرانية. وكانت فكرة التحديث بصورة عامة، وكرة القدم على وجه الخصوص، تمثل صدمة للنظام الإسلامى. ومع أن رضا شاه قمع رجال الدين، فقد كانوا لا يزالون يمارسون المقاومة الهادئة. ففى القرى أمر الملالى برجم لاعبى كرة القدم الإيرانيين. فعند اللعب فى الزى البريطانى كان الإيرانيون يرتدون الشورتات، مما يخالف الشريعة التى تفرض على الرجال تغطية المنطقة ما بين الصرة والركبة.

لكن الأساليب القديمة لم تُتَح لها

كان مشهد كرة القدم قد أخذ يعكس الطموحات الخاصة بإيران الجديدة الأكثر تحرراً. وهى نفس الروح التى قذفت بالإصلاحى محمد خاتمى إلى الرئاسة قبل ذلك ببضعة أشهر





فرصة الصمود أمام جبروت المحدثين الذين تدعمهم الدولة القوية. فقد استولى نظام رضا شاه على الأراضى من المساجد وحولها إلى ملاعب لكرة القدم. وبمرور الوقت أصبح حماس الدولة أشد. وبينما احتضن رضا شاه اللعبة لأسباب نظرية إلى حد كبير، فقد عشقها ابنه بحب كهواية. ولعبها ولى العهد محمد رضا بهلوى فى مدرسة روزى بسويسرا. وحين عاد إلى الوطن فى عام ١٩٣٦ لعب كمهاجم فى مدرسة الضباط التى التحق بها. وحين أجبر البريطانيون رضا شاه على التنازل عن عرش الطاووس لابنه فى عام ١٩٤١، بعد أن أقدم بغباء على إقامة علاقات حميمة مع النازيين، وضعوا على العرش أكبر متعصب لكرة القدم فى البلاد.

رغم بعد إيران عن كل من الجبهتين الآسيوية والأوروبية، عانى الاندفاع البهلوى تجاه الحداثة من نكسة كبيرة بسبب الاختلالات الاقتصادية الناجمة عن الحرب العالمية الثانية. وفى ظروف البلاد السيئة، أصبح النفوذ الأجنبى، وكان لا يزال هو النفوذ البريطانى مع تزايد النفوذ الأمريكى، بارزاً كما كان من قبل، وبلغ ذروته بالانقلاب الذى قادته الولايات المتحدة للإطاحة برئيس الوزراء المنتخب محمد مُصَدِّق فى عام ١٩٥٣. وفى المدن، بدأت طبقة المثقفين الاشتراكيين ورجال الدين التقليديين تأكيد وجودهم. وكانت أمور مهمة خاصة بالدولة تشغل ذهن الشاه الجديد. ورغم ذلك، وباعتباره مشجعاً مخلصاً، لم يمكنه التغاضى عن الخسائر التى لحقت بالفريق القومى الإيرانى فى الخمسينيات. ولذلك بدأ فى تخصيص الموارد لخلق فريق عظيم.

فى العقد الثانى من حكمه، أثمر العمل الشاق، وكجزء من برنامج النظام المتواصل للنمو المحموم والتحديث، امتلأت المدن التى تحولت حديثاً إلى الصناعة بملايين المهاجرين من الأقاليم. وقد بدأ هؤلاء الوافدون، الذين يتمتعون لأول مرة بالراحة من العمل الشاق فى الزراعة، فى ملء أوقات فراغهم بكرة القدم. وكان المتحضرون حديثاً الذين لا يمكنهم الحصول على تذاكر لدخول الاستاد يشاهدون كرة القدم على شاشة التلفزيون؛ وهى الوسيلة التى ازدادت جماهيرية فى أواخر الستينيات. ولكن شعبية هذه الرياضة لترتكز على مباراة واحدة لُعبت ضد إسرائيل فى أعقاب حرب ١٩٦٧.

وعلى عكس سائر العالم الإسلامى، كان للإيرانيين تحالف هادئ مع الدولة اليهودية مخالف لصخب أواخر الستينيات. (كثيراً ما حققت إسرائيل نجاحاً كبيراً فى تنمية التحالفات غير العربية على حواف العالم الإسلامى). وبسبب هذا التحالف لم ينضم الإيرانيون إلى الدول المسلمة الأخرى التى رفضت حتى دخول المجال الرياضى مع الإسرائيليين.

وقد لُعبت المباراة ضمن دور الأربعة فى كأس الأمم الآسيوية. وبينما احتفظ النظام بعلاقات مع إسرائيل، لم يكن الشعب الإيرانى يتبنى الموقف نفسه على الإطلاق. وفى وقت سابق من الدورة، حين لعبت إسرائيل مع هونج كونج، رمى الإيرانيون المشجعين اليهود بالزجاجات. وكما قال هوتشانج شهابى، فقد كانت المباراة مع إسرائيل دراسة حالة فى القبح. فقد أطلق المشجعون البالونات المغطاة بالصليب المعقوف، كما هتفوا «الهدف الثانى فى الشبكة، مؤخرة موشى ديان المسكينة مشقوقة وملتهبة».



هناك نظريات كثيرة تفسر المنطق الذى وراء قرار الشاه السماح بإجراء هذه المباراة. ويقول إيرانيون كثيرون باقتناع إن الشاه نظم المباراة لتنفيس الشعور المعادى لإسرائيل بطريقة غير ضارة. ويؤكد آخرون أن الإسرائيليين جعلوا نتيجة المباراة ٢-١ مساندة لصديقهم الشاه. ومهما كان الأساس المنطقى لقرار الشاه، فقد اكتسب انتصار إيران أهمية أسطورية. وقد سجله المغنون الشعبيون فى أغنية، وأصبح اللاعبون شخصيات قومية يقلدها الأطفال فى آلاف من مباريات الكرة الشراب التى تقام فى الشوارع.

وإذا كان النظام استغل المباراة بذكاء ضد إسرائيل كى يدعم موقفه، فقد كان استغلاله أكثر وضوحاً فى السنوات التالية. وانتعشت اللعبة فى السبعينيات مع المنافسة المكثفة بين الأندية. وتعلق أفراد العائلة المالكة فى الشعبية الجديدة وبدءوا علانية تأييد نادى التاج. وللتغطية على قواعد الملكية، تعاطفت زوجة الشاه مع فريق بارسبوليس منافس التاج الكبير. ومع ارتباط الملكية الشديد هذا بكرة القدم، فمن المحتم أن يستهدف معارضو النظام الإسلاميين ذلك، وغالباً ما كانوا يقاطعون المباريات لإعلان احتجاجاتهم.

وكان لنظام الشاه الكثير من الأخطاء، وخاصة التعامل مع معارضيه بوحشية لا سبيل إلى إنكارها. ولكن أكبر عيوبه، وهو العيب القاتل، هو برنامج الشاه الخاص بالتحديث. فقد كان يدفع بالبلاد بشدة، وبسرعة، كى تصبح حضرية وصناعية. فقد تم القضاء على قرون من الحياة الفارسية خلال جيل من التحول المحموم. إلا أنه حين طرد الثوريون الشاه فى عام ١٩٧٩ حاولوا بشدة القضاء على الرمز الرياضى لبرنامج التحديث هذا. فقد استولوا على ملعب كرة القدم فى جامعة طهران، واستخدموا الاستادات أماكن للصلاة فى يوم الجمعة. كما أمموا نوادى كرة القدم، وحولوا التاج إلى الاستقلال وبارسبوليس إلى بيروزى (النصر). وأوضح المتزمتون المتقشفون فى صحفهم ومنشوراتهم أنهم يعتبرون كرة القدم دعوة منحطة. ويقول شجب ثورى نمطى: «ألم يكن من الأفضل بدلاً من التصرف كالمهرجين مثل البريطانيين والأمريكيين من أجل «اللمعان» فى الحلبات الدولية أن يلمع اللاعبون فى صحبة أخوة... الجهاد فى قرانا، حيث تنقص أبسط أسباب الراحة؟ هل حلت كل مشاكلنا السياسية والاقتصادية والثقافية حتى نتحول إلى الرياضة؟».

[٤]

خلال فترة قصيرة جداً نجح النظام الإسلامى بالفعل فى القضاء على الثقافة الشعبية الإيرانية، وتخلص من المغنيات والمطربين، رافضاً أى فيلم سينمائى يكشف عن قدر زائد عن الحد من اللحم. ولكن حين امتد ذلك الحظر إلى كرة القدم، أصبح من المستحيل الدفاع عن موقف النظام. فقد وضع الحكومة الجديدة فى معارضة مباشرة مع هواية كبيرة للشعب الإيرانى. وبسرعة كبيرة أدرك الملالى أن القضاء على كرة القدم لا يستحق ثمنه السياسى. وبما أن رجال الدين لم يتمكنوا من تدمير كرة القدم، فقد فعلوا ثانى أفضل شىء. ذلك أنهم حاولوا الاستفادة منها واستغلال اللعبة من أجل كل ما لها من قيمة. فقد اندس عملاء النظام بين جماهير المشجعين وحاولوا قيادة الهتافات التى تحمد الله. وجرب النظام كذلك وضع شعاراته على لوحات تحيط بالملعب. فبدلاً من الإعلان عن توشيبا وكوكاكولا، كانت اللوحات تصرخ قائلة: «فلتسقط الولايات المتحدة»، و«لابد من تدمير إسرائيل».

لكن ربما لم تتخيل الحكومة بشكل جاد أن تلك الرسائل السياسية يمكن أن تنجح، ولو بطريقة لا شعورية، فى شد انتباه المشجعين. فالواقع أن الجماهير فعلت شيئاً قريباً من عكس هز قبضاتها والصياح بالهتافات الإسلامية. فقد طردوا قادة الهتافات المتدينين خارج الاستاد. وكانت تلك رسالة لا لبس فيها لإخراج المسجد من الرياضة سمعتها الحكومة فى النهاية. وتوقف النظام عن الزج بالدعاية السياسية الموجهة فى كرة القدم. وبدأ يرسم مساراً أكثر واقعية مع التركيز على تقليل خسائره والحد من التأثيرات غير الإسلامية التى تصاحب اللعبة. وكان فى ذلك شديد الحيلة والذكاء بشكل غير عادى. فقد أصر فى بعض المباريات على تأخير طفيف فى البث، بحيث يكون لدى الرقباء الوقت الكافى لمحو لغة الجماهير السيئة أو الرسائل السياسية



إنها أكثر من مجرد حدث. فثورة كرة القدم تمسك بمفتاح المستقبل فى الشرق الأوسط. وربما أمكن تصور هذا المستقبل فى ظل خفقان الراية القومية الموالية للإسلام





حب الوطن فرض عليه

محمد يونس القاضى

حب الوطن فرض عليّه — أفديه بروحى وعينيه
ليه بس ناح البلبل ليه — فكرنى بالوطن الغالى
قضيت أعز شبابى فيه — وفيه حبايبى وعزالى
وإن شاف هوان وإلا أسية — أفديه بروحى وعينيه
يا مصر أنا رضعت هواك — بيجرى فى دمى
أحب نيلك وسماك — أنت أبويا إنت أمى
أرواحنا وشبابنا فداك — وفداكى روحى وعينيه
ماليش يا مصر حبيب غيرك — أميل إليه فى الدنيا دى
ونا اللى متربى فى خيرك — وإزاى راح أنسى هوا بلادى
ونيلك الحلو الصافى — أفديه بروحى وعينيه
حب الوطن فرض عليّه — ومن يلومنى فى حبه ده مين
ده ورده أحلى فى عنيه — من كل ورد تشوفه العين
يا أعيش كريم يا أموت كريم — وأفديه بروحى وعينيه
حب الوطن فرض عليّه — أفديه بروحى وعينيه



لا شك فى أن الحكام المستبدين القدامى قد أحدثوا قدراً كبيراً من الصداع، ولكن أمريكا كانت تعرف أساساً كيف تتعامل معهم. فقد استطاعت أن تقضى عليهم الواحد تلو الآخر

التى يمكن سماعها من خلال التلفزيون. وبالنسبة لمباريات أخرى، كان يخفف صياح الجماهير بطريقة إلكترونية ليصبح مجرد ضجيج مسموع وغير مفهوم. وأثناء كأس العالم لعام ١٩٩٨ كانت الحكومة الإيرانية تعيش فى حالة خوف من معارضيها فى المنفى، وخاصة جماعة من شبه الماركسيين تسمى «مجاهدى خلق» كانت تملأ الاستاد فى فرنسا، وكانت تأتى معها بالرايات وتعد الهتافات بعناية. ولتحاشى نقل رسائلها المدمرة بشكل يثير الارتباك، لم يكن التليفزيون الإيرانى يذيع أية لقطات للجمهور الحقيقى. بل كان يقوم بعمل مونتاج يضع من خلاله صوراً من مباريات سابقة، ولم تكن الصور مقنعة بصورة كبيرة. إذ كانت الجماهير التى يعرضها التلفزيون ترتدى المعاطف الشتوية الثقيلة، وهى الملابس التى لا تتناسب بحال من الأحوال مع فرنسا فى شهر يونيو.

فما الذى يخشاه النظام إذن من كرة القدم؟ فى مشهد كوميدى مؤثر فى فيلم للمخرج عباس كياروستامى «الحياة تمضى» الذى تدور أحداثه فى اعقاب وقوع زلزال، يكافح الرجال لضبط الهوائى لاستقبال مباراة بين النمسا واسكوتلندا. ولابد من ملاحظة ان هاتين ليستا من بين عمالقة كرة القدم المعاصرة. وهذا هو المثير فى الأمر. فالإيرانيون يرغبون بشدة فى مشاهدة كرة القدم الدولية لأنها تربطهم بالغرب المتقدم الرأسمالى غير المسلم. وحين تذاع مباريات من كأس العالم، لا يمكنهم تحاشى اللافتات الموضوعة على جانب الملعب تعلن عن «بلاى ستيشن» و«دوريتوس» و«نايكى» وهذا أسلوب حياة محظور على الإيرانيين الانضمام إليه. وهذه الصلة يدركها المحافظون. وفى صحفهم يطمس من يقومون بعمل مونتاج للصور الفوتوغرافية الإعلانات التى تمجد الملابس الغربية.

مرة أخرى، ليس هناك سوى ذلك القدر الكبير من الحد من الأضرار الذى يمكن للمحافظين القيام به. ذلك أن بإمكانهم طمس الإعلانات وليس اللاعبين أنفسهم. فأية صورة لديفيد بيكام، على سبيل المثال، بشعره الذى تتنوع تسريحاته بين «بظ» و«موهوك» و«ديل الحصان»، تمثل فكرة الحرية. وهى الفكرة التى وعاها اللاعبون الإيرانيون. وبلا استثناء تقريباً، يلعب أفراد الفريق القومى بلا لحى ويشعر جرى تسريحه بعناية. وهم يحظون بحب كبير، واحترف كثير منهم اللعب فى ألمانيا وإنجلترا وسنغافورة، وغيرها من مواقع الاقتصاد الكونى المتقدمة. ولم يمكنهم أن يكونوا أكثر اختلافاً عن نموذج الرجولة الإيرانية المتدينة الذى يود رجال الدين فى مدينة قُم المقدسة نقله.

[٥]

أبرزت انتخابات الرئاسة فى عام ١٩٩٧ الأمل الأبيض الكبير، وهو رجل الدين والمفكر محمد خاتمى. وكان خاتمى قد أيد فى كتاباته تطابق الإسلام والليبرالية. وكان مؤيدوه يحلمون بصوت عال بأن يؤدى انتخابه إلى حقبة جديدة من الديمقراطية والمجتمع المدنى وحرية التعبير وحقوق أكبر للمرأة. وبينما كانت آمال الكثير من الإيرانيين ترتكز على خاتمى، فلم يسمح معظمهم بقدر أكثر من اللازم من التفاؤل. إذ كان خاتمى الجواد المتوقع خسارته فى السباق. ذلك أن منافسه على أكبر ناطق نورى، وهو رجل دين كذلك، جاء بمباركة المرشد الأعلى آية الله خامنه إى، وكان يمثل قوى النزعة المحافظة فى المؤسسة الحاكمة. وفى إيران يمكن لرجال الدين، متى شاءوا تقريباً، مد ذراعهم الطويلة باستخدام الميليشيات لشق طريقهم بالقوة.

أبرز خاتمى أجزاء من أجندة أكثر ليبرالية. ولكن الخطاب السياسى الإيرانى ليس سوقاً نموذجية للأفكار. فهناك بعض الأفكار التى لا يمكن الجهر بها. فلا بد من نقلها بطريقة ضمنية وباستخدام الرموز، مثل الأبطال الرياضيين المحيطين بالمرشح.

من بين ألعاب وأنشطة وقت الفراغ الإيرانية نجد أن أقدمها وأكثرها احتراماً هو «زورخانه» أو دار القوة. ويشكل أكثر تحديداً ليست «زورخانه» رياضة وإنما



الحل الكروى للطموحات الإسلامية

صالة ألعاب تمارس فيها الرياضة. وهى ألعاب محلية تشمل حمل الأشياء الثقيلة وعروض القوة الوحشية الأخرى التى تشبه المصارعة ورفع الأثقال. وطقوس «زورخانه» محددة بعناية. فالحركات تبدأ بمدح آل البيت. وبسبب هذه الأصول الإسلامية، فلدى المحافظين الإيرانيين انجذاب لا يدعو للدهشة نحو «زورخانه». وتخصص صحفهم أكواماً من التغطية للرياضة. وتتجاهل كرة القدم بشكل أساسى. والتقى ناطق نورى فى حملته الانتخابية بالمصارعين وأشاع حبه للرياضة على نطاق واسع.



كان ناطق نورى قد حول نفسه دون أن يدرى إلى سيف ماض فى يد خاتمى. فبدون أن يُضطر خاتمى إلى نطق الكثير من الكلمات عن الديمقراطية أو الغرب، استطاع أن يثبت نفسه للإيرانيين المتعطشين للإصلاح عن طريق الانحياز إلى استاد كرة القدم. فقد أحاط خاتمى نفسه باللاعبين المشهورين الذين أيدوه. وما من سبيل لقياس الأثر المطلق لهذه الإستراتيجية. ولكن المنطق واضح وضوحاً كافياً. فقد كان أهل البلاد من الشباب الناشئ فى إيران ينظرون إلى الغرب وإلى كرة القدم كمصدر للإلهام. فقد كانوا ينظرون إلى التحالف مع كرة القدم على أنه يشير إلى المكان الذى ترتكز عليه مشاعر خاتمى. وفى النهاية فاجأ خاتمى الجمهور وحصل على الرئاسة.

ولكن الحصول على الرئاسة وتحقيق آمال مؤيديك العليا أمران مختلفان. ومن سوء الحظ أن خاتمى لم يمكنه قط تحقيق أحلام الشباب الإيرانى ذى الميول العلمانية، لأنه لم يكن قط ذلك المخلوق الذى تخيلوه. فقد كان مفكراً ليست لديه الشجاعة أو القوة كى يتحدى رجال الدين الحاكمين تحدياً تاماً. والأهم من ذلك أنه نفسه كان رجل دين تقليدياً.

خلال السنوات الثلاث الماضية، كان السخط على خاتمى يخرج من مكمنه من حين لآخر. وقد أعقب الكثير من مناسبات السخط تلك كأس العالم. أى المباريات المتصلة به. وكما يحدث دائماً، حاول النظام استباق تلك الانفجارات بإشارات نموذجية. فبعد مباراة مهمة تؤهل لكأس العالم لعام ٢٠٠٢، صنعت الحكومة كعكة باستخدام ١٢ ألف بيضة ووزعتها فى أنحاء طهران فى شاحنات مبردة. ولكن الحلوى لم تكن كافية لاستعادة ولاء الشباب. فقد بدأوا البحث عن بديل لكل من الملالى المحافظين والملالى الإصلاحيين مثل خاتمى. وحتى الآن لم يتخذ البديل شكلاً واضحاً، إلا أن هناك امارات تدل على الاتجاه. فهناك حنين قوى بين الشباب إلى أيام الشاه، حتى وإن لم يعيشوا هم أنفسهم تلك الأيام. وتوزع الأشرطة المهربة للنجوم الشعبيين من الماضى على نطاق واسع. وهاهى ربطة العنق تُبعث من جديد. إنه نفس الدافع الذى وراء ثورات كرة القدم التى تهتف باسم ابن الشاه.

فما الذى ينبغى أن يحققه الغرب من ثورة كرة القدم؟ المقبول ظاهرياً أنها تمثل التحدى الحتمى الذى تشكله العولمة للإسلام. ولكن هذه ليست القصة كاملة. فَكُرة القدم تحقق نجاحاً كبيراً فى العالم الإسلامى دون أن تلقى التشدد. وهاهو حزب الله يرعى فريق كرة قدم فى لبنان، وكان فيما مضى قد اشترى حقوق بث كأس الأمم الأفريقية لشبكة الإذاعة الخاصة به. كما استوردت دول الخليج العربى ذات التوجه الوهابى نجوم الغرب العواجيز للعب فى بطولات الدورى الخاصة بها. وقد شيدت الملاعب الفخمة بالرخام وورق الذهب، مثل استاد الملك فهد الدولى المهيب بالرياض ذى التأثير البدوى.

إن ما يجعل ثورة كرة القدم مختلفة هو أنها دخلت بهدوء فى العاطفة القومية وحولتها ضد الدولة. ذلك أن الإخلاص الإيرانى للإسلام فى عظم الإخلاص الإيرانى لإيران. فدائماً لم يكن الاثنان الشىء نفسه، وهناك تاريخ قريب من العلمانية القومية، العلمانية التى تقوم مقام البديل. قد لا تكون البديل الأمثل، ولكنها سوف يجب أن تكون كذلك فى الوقت الراهن. ■

كتاب الزاوية

زورونى كل سنة مرة

محمد يونس القاضى

زورونى كل سنة مرة   حرام تنسونى بالمرة
أنا عملت إيه فيكم   تشاكونى وأشاكيكم
أنا طول عمرى أداديكم   حرام تنسونى بالمرة
يا كبدى ع اللى مالوش حد   بطول عمره يقاسى الوجد
وتنزل دمعته ع الخد   حرام تنسونى بالمرة

أنا هويت وانتهيت

أنا هويت وانتهيت   وليه بقى لوم العزول
يجب إنى أقول يا ريت   الحب ده عنى يزول
مادمت أنا بهجره ارتضيت   خللى بقى اللى يلوم يلوم
أنا وحبيبى فى الغرام   مافيش كده ولا فى المنام
أحبه حتى فى الخصام   وبُعده عنى يا ناس حرام
مادمت أنا بهجره ارتضيت   منى على الدنيا السلام

